

المرأة في إيالتى الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر من خلال رحلة الطبيب الفرنسي "جان أندري بايصونال" 1724-1725 م.

Women's in the Algeria and Tunisia during the eighteenth century through the Journey of "Jean-André Peyssonnel" 1724-1725 Ad

يعقوب خديجة*

جامعة باجي مختار عنابة (الجزائر)

Khedidja-yakoub@outlook.fr

تاريخ القبول: 25/09/2024

تاريخ الاستلام: 2023/06/07م

● الملخص:

يهدف هذا البحث إلى رصد صورة المرأة في الجزائر وتونس من خلال كتابات الرحالة الأجانب خلال القرن الثامن عشر ميلادي، وعلى رأسهم الطبيب والرحالة الفرنسي "جان أندري بايصونال" (Jean André Peyssonnel). الذي زار المنطقة بين سنتي 1724 و 1725م، وقد أعطت انطباعاته على أن المرأة بقيت في كثير من الأحيان أسيرة البيت والقبيلة، ومنعزلة عن كل ما يحدث في المجتمع. وقدم ملاحظات ومعلومات مستقاة بطريقة أكثر عقلانية، من عادات وتقاليده وطقوس، واحتوت وصفا دقيقا للحياة اليومية للمجتمع الجزائري والتونسي خلال الربع الأول من القرن الثامن عشر ميلادي، وتمت الاستعانة بما تركه لنا هذا الرحالة من ملاحظات. تم التوصل إلى أن هناك فراغا كبيرا في رصد الحياة اليومية للمرأة، وفي ضوء هذه النتائج المتوصل إليها وجب الاطلاع على كل ما كتبه الرحالة الأجانب والعرب من أجل الإحاطة بمختلف الأدوار التي لعبتها المرأة في مختلف المجالات.

كلمات مفتاحية: المرأة ، الجزائر ، تونس ، رحلة ، بايصونال

Abstract:

This research aims to monitor the image of women in Algeria and Tunisia through the writings of foreign travellers during the eighteenth century AD, led by the French doctor and traveller (Jean André Peyssonnel). He visited the region between 1724 and 1725, and gave his impressions that women often remained captive to the home and tribe, isolated from everything that happened in society.

He provided observations and information gleaned in a more rational way, from customs, traditions and rituals, and contained an accurate description of the daily life of Algerian and Tunisian society during the first quarter of the eighteenth century Ad. The observations left to us by this traveller were used.

It was concluded that there is a great gap in monitoring the daily lives of women, and in the light of these findings, it is necessary to read everything written by foreign and Arab travellers in order to take note of the various roles played by women in various fields.

Keywords: women's , Algeria , Tunisia , journey , Peyssonnel

مقدمة.

إنّ المتتبع لطبيعة وخصائص المجتمع المدني والقبلي في ايلاتي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر ميلادي، يلاحظ من أول وهلة طغيان العنصر الذكوري على المجتمع، لا تظهر فيه المرأة على مسرح الأحداث، كما كانت لها أدوار هامشية في الحياة اليومية، ومن السهولة أن يلاحظ الباحث في لتاريخ الاجتماعي غياب النساء في المصادر التاريخية وكتب الرحالة والتراجم.

تمكّن الرحالة الفرنسي "جان أندري بايصونال" Jean André Peyssonnel الذي زار الجزائر وتونس خلال الربع الأول من القرن الثامن عشر، من ملاحظة بعض الخصائص، وتميز بعض النساء في مجال السياسة والإدارة في مركز السلطة وفي دواخل البلاد، وقد وجدت إشارات لبعضهنّ، وحظيت بعض النساء باهتمام واف مكّننا من اتخاذهم كنماذج.

تتمثل إشكالية بحثنا فيما يلي: هل لعبت المرأة في الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر أدوار هامة في المجتمع؟ وهل يمكن رصد بعض الأدوار من خلال ملاحظات طبيب ورحالة فرنسي زار المنطقة في تلك الفترة؟

تم الاعتماد في هذا المقال على ملاحظات الرحالة "بايصونال" قصد تتبع ظهور الوجه النسائية في دواخل البايك، وعلاقتهم بقبائلهم، ومدى قربهم من السلطة. ونرغب في هذا العرض رصد بعض النساء اللواتي شاركن الباشاوات والبايات في إدارة شؤون الحكم في المدينة والقبيلة، وإظهار نماذج لتلك الوجوه النسائية، كما تمّ اعتماد المنهج التاريخي القائم على تتبع تلك الملاحظات، وتحليل ما جاء في كتابات الرحالة.

1- التعريف بالرحالة بايصونال:

هو (جان أندريه بايصونال / Jean André Peyssonnel)، وُلد في 19 جوان من سنة 1694، بمدينة (مارسيليا / Marseille) بفرنسا. نشأ في عائلة ذات طبقة اجتماعية راقية، حيثوالده كان الطبيب المشهور في عصره (تشارلي بايصونال / Charlie Peyssonnel)، ووالدته هي (آن ازوارد / Anne Azzouard). بدأ حياته الدراسية في (كولاج ديسبرس / College Disperse) بمرسيليا ثم أكمل باقي المراحل الدراسية النهائية في باريس. تلقى تعليمه على يد العالم المشهور ومؤسس معهد بولونيا (لويجي فيردناندو مارسيلي / Luigi Ferdinando Marsigli)، أين ظهر شغفه وحبّه للتعلم ودراسة التاريخ الطبيعي. مارس في بداية حياته المهنية الطب بمدينة مرسيليا قبل أن يتم إرساله في بعثة علمية استكشافية إلى شمال أفريقيا¹.

في سنة 1723، عيّنت أكاديمية العلوم الفرنسية بايصونال كمراسل للطبيب باحث الكيميائي (إيتيان فرانسوا جوفروا / Etienne- François Geoffroy). ثمّ في سنة 1724، تمّ إرساله إلى شمال القارة الأفريقية وتحديدًا إلى الجزائر وتونس بطلب من الملك الفرنسي (لويس الخامس عشر / Louis XIV)، وذلك من أجل دراسة التاريخ الطبيعي للإيالتين (الجزائر وتونس) باعتباره متخصصا في هذا المجال، أي التاريخ الطبيعي. مؤلفا واحدا من أشهر كتاباته، والذي حمل عنوان:

Relation d'un Voyage sur les Côtes du Barbarie (1724-1725) وعندما عاد منها شارك في تأسيس

أكاديمية مرسيليا سنة 1726.

¹ - عزالدين بومزو - الضباط الفرنسيون الإداريون في إقليم الشرق الجزائري ارستت مرسية نموذجاً - مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث - تخصص تاريخ وحضارات البحر الأبيض المتوسط - جامعة منتوري قسنطينة - 2007م - ص 4.

عين بايصونال عند عودته لفرنسا كطبيب ملكي في (Guadeloupe/ الغوادالوب)، وهناك تفرّغ للقيام بأبحاثه، أشهرها تلك التي كانت متعلّقة بدراسته للمرجان الذي وجد منه الكثير خاصة في المناطق الساحلية الشرقية الجزائرية. لكنّه اصطدم خلال بحثه أنّ العلماء الفرنسيين حينها لم يعترفوا باستنتاجاته حول الموضوع، ما دفعه فيما بعد للتواصل مع الجمعية الملكية في لندن سنة 1752 من أجل تبني أبحاثه وتمويلها².

توفي بايصونال بتاريخ 24 ديسمبر 1759 بالجلتزا، مخلفاً وراءه عدة بحوث ودراسات مختلفة، في مجالات متعدّدة منها الفيزياء والتاريخ والأدب. ومن بين الدراسات التي قدّمها نذكر دراسته لطبيعة المرجان، وبعض الأمراض من حيث أسباب وطرق مداواتها، وهذا ما أشار له من خلال رسالة كتبها للأب (Bignon/ بنبون) والتي أوضح له من خلالها المواضيع التي ستشملها أبحاثه³.

2- نساء باشاوات الجزائر وبايات قسنطينة وتونس:

في حديثه عن نساء الباشاوات في مدينة الجزائر وبايات قسنطينة، لم يخصص الرحالة بايصونال الكثير عن نساء بايات تونس، والظاهر أنّهم لم يتقلدن مسؤوليات كبيرة، أو لم يتدخلن في شؤون السياسة، فقد كان حسين باي تونس (1705-1740م) يخصص عدة سرايا أو غرف للنساء وحرمة في قصر باردو⁴، دون أن يكون هناك ذكر لامرأة مميزة أو مؤثرة في قصر بايات تونس.

ولم يذكر الرحالة أي شيء عن نساء البايات المراديين الذين حكموا خلال القرن السابع عشر ميلادي، فقد ذكر أنّه من المرجح أن يكون هناك بعض النساء كن جميلات، فمراد باي الثالث قد خرج من باردو مصحوباً بحرسه⁵، وقد وصل إلى جبل بوقرنين بسبب أنه كان مغرماً بفتاة من بنات أثرياء السكان، وكان يريد الاستمتاع بها، وأنّ والدها أخفاها في تلك الجبال، فبحث عنها الباي دون أن يعثر عليها⁶.

وفي حديثه عن التعداد العام للسكان في الإيالة التونسية لاحظ الرحالة أن السيد الذي يمتلك مائة (100) امرأة سواء كانت شرعية أو سرية أو جارية، فإنه لا ينجب أبناء إلا من بعضهن⁷. غير أنّنا نلاحظ أنّ هناك مبالغة في هذا الرقم، وهو رقم فيه نوع من المبالغة. ومن جانب آخر كان بايات قسنطينة يولون أهمية كبيرة لنسائهنّ، فقد كانت نساء حسين باي المدعو بوكمية (1713-1736م) يتنقلن مع محلّة جنده المتوجهة لأرياف والدواخل، ويخصص لهنّ خيمة من مجمل ثلاث خيام⁸.

وقد سمحت إقامة هذا الرحالة الفرنسي عند باي قسنطينة، أين استضافه هذا الأخير في خيمته، بتقديم العديد من الملاحظات، بعد أن تنقل معه في محلّته بالقرب من الاوراس، وقد كوّن الباي علاقات ومصاهرات مع شيوخ القبائل الكبرى المتحالفة مع البايلك، فقد

² - حسان كشرود- "بايلك الشرق: دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالتين بايصونال ودينفونتين والدكتور توماس شو- مجلة قضايا تاريخية- العدد: 06- 2017م- ص 45-65.

³ - المرجع نفسه- ص 46.

⁴ - Peyssonnel- Desfontaines- Voyages dans les régences de Tunis et Alger- librairie de gide- Paris 1838- p 27.

⁵ - لم يذكر بايصونال فترة حكم هذا الباي، وقد حكم فيما بين 1699 و 1702م.

⁶ Ibid- p 75.

⁷ Ibid- p 75.

⁸ - جون أندري بيسونال- رحلة إلى إيالة الجزائر- ترجمة وتعليق لخضر بوطبة- داركوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع- الجزائر- 2022م- ص 32.

كان في العام الماضي (سنة 1724م) يُحَصَّر لزوجاه من ابنة "أم هاني" زعيمة قبيلة الذواودة الهلالية بالزاب⁹، وكان عامل المصاهرات عنصرا فعّالا في العلاقات بين البايك والقبيلة¹⁰.

كما قلّد هذا الباي أصهاره وهم أبناء "أم هاني" بمهمات عديدة، فقد كان الرحالة "بايصونال" يرغب في زيارة إحدى العيون في الأوراس، ولكن تعذر عليه بسبب الثلوج، لكنّ الباي وعده أن يكلف ربيبه ابن الأميرة أم هاني لمرافقته والتجول في كامل المنطقة والصحراء. كما تزوّج هذا الباي من ابنة بن سديرة شيخ قبيلة أولاد قاسم المتوطنة بضواحي الأوراس بعد وقت قصير فقط من قتل والدها، وسلّم قيادة القبيلة لابن الشيخ بن سديرة الذي أصبح صهره¹¹.

ويظهر أنّ هذا الحاكم كان يعمل جاهدا من أجل عقد مصاهرات عديدة مع شيوخ القبائل الكبرى في بايلك الشرق الجزائري، وتسليم أصهاره مهام عديدة، رغبة في كسب ولائهم ومساندتهم، ضد القبائل العاصية والمنتفضة ضد سلطة البايك في الشرق الجزائري، وقد ذكر الرحالة حالة العديد من قبائل المقاطعة والمتميزة بالاستقلالية عن السلطة وعدم الاعتراف بها.

وبالنسبة للنساء اللواتي شغلن أدوارا سياسية في قصور حكام إيالة الجزائر، فإنّ الرحالة "بايصونال" تمّ استدعاؤه من طرف الباشا بابا عبدي (1724-1732م) للمثول لديه في قصره، خوفا من أن يكون جاسوسا قادما من الإيالة التونسية، وقدّم ملاحظات حول الحياة اليومية للباشاوات، لكن غابت معلومات عن حريم الباشاوات في السرايا والقصور، وقد كانت قصور الحكام والملوك تزخر بالجواري، فقد غدا الحريم موضعا للرفاهية، لإبعاد الساسة والحكام عن ضغط الحياة السياسية ومشاكلها.

وبالنسبة لمدينة الجزائر فقد كانت هي مقر إقامة الباشا حيث يدير شؤون الحكم من هناك، ويعتبر قصره هو مكان إقامته إذا كان أعزبا، وهو عبارة عن بناية كبيرة بابها من المرمر، ومبنية بشكل جميل، وفي حالة ما إذا كان للباشا زوجات، فيخصص لهنّ بيت خاص بجوار القصر المذكور¹²، الذي يدير منه الباشا شؤون الإيالة.

لقد كان هناك العديد من نساء البايات في إيالة الجزائر يمارسن الحكم مثل سارا باي وهالة باي، اللواتي كانت لهنّ اليد الطولى في الحكم، حيث كان رجال الديوان يذهبون لاستشارتهن ومعرفة إرادتهن قبل الاجتماع، وإبلاغهن بالمداولات بعد الاجتماع، لأنّهن غير مسموح لهنّ بالدخول إلى الاجتماع¹³.

حسب ما جاء في ملاحظات الرحالة، فإنّنا لا نعرف حقيقة ونسب هذه النساء، ولم يذكر أنّهن نساء الباشاوات محمد خزناجي (1718-1724م) أو بابا عبدي (1724-1732م)، أو الباشاوات الذين حكموا قبلهم، ونعتقد أنّ هذه النساء الحاكمات قد كنّ

⁹ جون أندري بيسونال- المصدر نفسه- ص 39.

¹⁰ - تقول الباحثة "جميلة معاشي" حول هذه المرأة أن رجب باي قسنطينة (1077هـ/ 1666م) عمل على التقرب من أسرة بوعكاز الذواودة بعد أن عجز عن إلزامها بالإعتراف بحكمه، وقد عمد إلى مصاهرتهم عن طريق تزويج ابنته "أم هاني" المشهورة بقوتها وذكائها "للقيوم" أخ شيخ العرب أحمد بن السخري بوعكاز، وبعد وفاة زوجها "القيوم" تزوجها أخوه "أحمد بن السخري" شيخ العرب، وبعد أن قام أهل زوجها بقتل أخيها غدارا، قامت "أم هاني" بقتل زوجها بالسّم ونفذت مجزرة في حق أفراد أسرة زوجها ثارا لأخيها، وأعلنت نفسها على رأس مشيخة العرب، للمزيد من الإطلاع أنظر: - جميلة معاشي- الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ/ 16م إلى القرن 13هـ/ 19م- دراسة اجتماعية سياسية- رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث- قسنطينة- 1990- 1991م- ص 192- 193.

¹¹ - جون أندري بيسونال- المصدر نفسه- ص 85.

¹² - المصدر نفسه- ص 40- 180.

¹³ - المصدر نفسه- ص 130.

زيجات للباشاوات وليس للبايات كما ذكر بايصونال، طالما أنّ الديوان كان ينصب في قصر الباشا بمدينة الجزائر، وكُنّ قد أثّرن في شؤون الحكم وفي دواليب السلطة، وشاركن أزواجهن في حلّ المسائل الشائكة، وفي ربط شبكات من العلاقات النسائية التي كان لها تأثير في شؤون الدولة.

ومن أشهر الحالات التي لعبت فيهن نساء الباشاوات أدوارا بارزة أثّرت على شؤون الإيالة الجزائرية في القرن الثامن عشر، وبعد أكثر من نصف من مشاهدات الرحالة "بايصونال"، فإنّ نقيب أشرف مدينة الجزائر "أحمد الشريف الزهّار" أورد لنا معلومات تتمثل في طلب زوجة حسن باشا الجزائر (1791-1798م) من زوجها أن يقتل صالح باي قسنطينة (1771-1792م) بعد أن تسبب في مقتل أبيها الذي كان يشغل رتبة خزنّاجي في عهد الباشا السابق (1766-1791م)، وجاء في مذكرات نقيب الأشراف ما يلي: "... ولما مات محمد باشا وتولى حسن باشا، طالبت زوجته بقتل صالح باي لتأخذ بثأر أبيها..."¹⁴.

كما نرجح أن هؤلاء النساء كنّ يجدن حلاً للخلافات التي قد تحدث بين بعض موظفي المخزن، دون الرجوع إلى الباشا، وكانت أداة ربط بين رجال السياسة وكبار العائلات وتقرب وجهات النظر، وتشارك في القضايا الخطيرة.

3. المصاهرات بين الباشاوات والأعيان المحليين.

تعود أولى المصاهرات التي قام بها حكام إيالة الجزائر خلال القرن السادس عشر ميلادي إلى فترة حكم حسن باشا (1533-1545م)، ففي سنة 1541م قام بالزواج من إحدى بنات أحد شيوخ القبائل¹⁵، ولكنه لم يذكر اسم شيخ القبيلة¹⁶، ومن تلك اللحظة أصبح سكان القبائل (بلاد زواوة) يحظون بالاستقبال الحسن في مدينة الجزائر، وسمح لهم الباشا بشراء الأسلحة وحملها، وهو ما خلق غيرة الجنود الأتراك الذين ثاروا على الباشا وأرسلوه إلى القسطنطينية مكبلا بالأغلال¹⁷.

في حين تزوّج بعض الكراغلة (أبناء الأتراك) من نساء المدن أو القبائل، وسمح لهم بالانضمام إلى صفوف الانكشارية، ولكنهم لا يستطيعون الحصول على مناصب معينة في الدولة خوفاً من أن يستولوا على السلطة العليا، وأن انتمائهم للبلاد عن طريق أمهاتهم قد تقودهم إلى الانتفاضات والتخلص من نفوذ الأتراك¹⁸، وبالتالي فقد كان الزواج والمصاهرة مع الأهالي يشكل خطراً في السلم الوظيفي أثناء ارتقائهم في المناصب العليا.

لقد لعبت المرأة دوراً كبيراً في إيالة الجزائر خلال تلك الفترة، والمساعدة في تسيير شؤون البايات، وحتى النساء الأجنبية كان لهنّ تأثير في علاقات بلدانهم مع إيالة الجزائر وحكامها، فعلى سبيل المثال تركت السيدة "لاكادوس داغيون" "madame la Duchesse"

¹⁴ - أحمد الشريف الزهّار - مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهّار نقيب أشرف الجزائر (1754-1830م) - تقديم وتحقيق أحمد توفيق المدني - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1974م - ص 64.

¹⁵ - جون أندري بيسونال - المصدر السابق - ص 203.

¹⁶ - تقول الباحثة جميلة معاشي أنّ أولى المصاهرات بين العثمانيين والأهالي كانت في القرن السادس عشر ميلادي بين خير الدين بربروس الذي تزوج من إحدى بنات أسرة ابن القاضي حكام إمارة كوكو، وكانت ثمرة ذلك الزواج ابنه حسن باشا، وتوسعت هذه الظاهرة إلى أن أصبح معظم الحكام متزوجين من أسر جزائرية، للمزيد من الإطلاع ينظر:

- جميلة معاشي - المرجع نفسه - هامش - ص 191.

¹⁷ - جون أندري بيسونال - المصدر نفسه - ص 203.

¹⁸ - المصدر نفسه - ص 132.

d'Aiguillon " مبلغ 4000 ليرة من المعاش التقاعدي السنوي للإفناق على اثنين من المبشرين في مدينة الجزائر، من اجل السهر على راحة العبيد المسيحيين، وعهدت هذه المؤسسة إلى السادة مبشري البعثة الفرنسية¹⁹.

وحتى السيدة الفرنسية "دوبورغ" التي وقعت في أيدي سكان قبائل المنطقة الواقعة بين بجاية وجيجل سنة 1720م وهي لا تتجاوز سن 10 سنوات، قام القنصل الفرنسي والسيد "دوسولت" مبعوث فرنسا الخاص في الجزائر بالتفاوض مع الباشا من اجل تحريرها، وتمكّن من تحريرها بفضل مجهودات اغاوات جيجل وبجاية²⁰.

وبعيدا عن أمور السياسة ومشاكلها، تذهب نساء الشخصيات البارزة والوفاي يحظين بمكانة مرموقة في مدينة الجزائر، إلى الريف للتنزه وقضاء العطلة، والجلوس في خيمة مربعة الشكل، ترافقها خادمة²¹.

ومن المرجح أن الباشاوات والبايات كانوا يفرضون على الرعية إهدائهم هدايا لنسائهم ، فعلى سبيل المثال، فإن الباي حسين بوكمية الذي ذكرناه سابقا كان مجبرا على إهداء الباشا هدايا من اجل الزينة²².

4. المرأة في مدينتي تونس والجزائر.

تلبس النساء التركيات في مدينة تونس ملابس وعمائم تشبه تلك الموجودة في المشرق، كما أنّ الأتراك وأهالي المدن التونسية شديداً الغيرة على نسائهم، ويعملون على عدم مشاهدتهم، ويعتبرون مشاهدة وجوههم جرماً²³.

كما كانت النساء الأوروبيات الأسيرات في مدينة تونس يحظين بمعاملة حسنة من طرف بايات تونس أو الأتراك، فكنّ يسلمن إلى تجار دولهم أو قناصل بلدانهم إذا طلب القناصل ذلك مهما كانت درجتهن الاجتماعية، وقد استحسن بايصونال تلك المعاملات التي يلقاها العبيد والأسرى في تونس بصفة عامة²⁴.

يتميز لون بشرة أبناء الأتراك أو المرتدين بلون جميل نسبيا، بسبب تزاوجهم مع التركيات أو الجوارى النصرانيات، في حين أن لون بشرة السكان الأهالي قليلة السمرة، بسبب التزاوج الواقع بين الأهالي الأصليين والجوارى المسيحيات، أما لون بشرة سكان الأرياف فهي بين الأبيض والأسود، غير أن لون بشرتهم يكون قائما قريبا من لون القهوة أو البن بسبب حرارة الشمس²⁵.

رغم كثرة النساء في الايالة التونسية والقادرات على إنجاب ذرية كثيرة، إلّا أنّ الإيالة غير أهلة بالسكان كما ينبغي، ويعود ذلك لعدة أسباب منها وجود عدة نساء عاهرات، وهذا هو حال الجوارى البيض والسود، فمثلا السيد الذي يمتلك مائة (100) امرأة سواء كانت شرعية أو سرية أو جارية، فإنه لا ينجب أبناء إلا من بعضهن²⁶.

19 - جون أندري بيسونال- المصدر نفسه- ص 182.

20 - المصدر نفسه- ص 208.

21 - المصدر نفسه- ص 188.

22 - المصدر نفسه- ص 34.

23 - Peyssonnel- Desfontaines- op.cit- p 67- 84.

24 - Ibid- p 28- 29.

25 - Ibid- p 74.

26- Ibid- p 75.

إنّ هذه الأحكام والمعطيات التي أمدّنا بها الرحالة هي أحكام غير منطقية، وتسعى إلى تشويه صورة مجتمع إيالة تونس في تلك الفترة، فالرحالة نفسه أكد أنّ الباي حسين بن علي (1705-1736م) كان يحارب ظاهرة البغاء، وقد أنشأ مؤسسة "المزوار" لمحاربة هذه الظاهرة، ناهيك عن الأوبئة والكوارث الطبيعية في البلاد التونسية والتي ساهمت في إنقاص عدد سكان الإيالة²⁷.
أما في مدينة الجزائر فلم يذكر الرحالة أشياء كثيرة عن نساء مدينة الجزائر باستثناء أماكن الراحة والتنزه والنظافة المخصصة لهن في مدينتي الجزائر وقسنطينة، ففي مدينة الجزائر كان هناك العديد من الحمامات، بعضها مخصص للرجال وبعضها للنساء²⁸.
في حين كانت نساء قسنطينة يخرجن في فصل الربيع للترويح عن أنفسهن، ومشاهدة بعض الحيوانات في إحدى الينابيع الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من المدينة²⁹.

5. الزواج والبغاء.

1-5. الزواج.

إن احتفالات الزفاف عند الأندلسيين المقيمين في إيالة تونس هي نفس احتفالات بقية المسلمين، وهذا حسبما شاهده الرحالة في منطقة "سليمان"، لكنّها ذات أبهة متميزة، وكل قرية تعيش احتفالا بمناسبة الزواج، فهم يأخذون العروس إلى بيت زوجها وهي على فرس، تغطى لدرجة عدم معرفة أي شيء عنها، تتقدمها طبول ومزامير، وتأخذ العروسة معها كل ما وقّره لها والدها، وأهداه إياها زوجها أو غيرها من الهدايا والأموال، ويحضر العرس الأهل وكل الأندلسيين المقيمين في تلك المنطقة³⁰.
في حين يمنح الرجال والشباب للعريس الأكل والهدايا والأموال، وبذلك يستطيع الزوج تسيير أموره من خلال هذه المساعدات، وقد دامت هذه الأفراح التي كان "بايصونال" شاهدا عليها ثمانية أيام³¹.
وكان الزواج عند الأندلسيين مغلقا، فبنات الأسر الأندلسية لا ترغبن في الزواج من أشخاص خارج طائفتهم، ولا يصاهرون الآخرين عن طواعية، رغم أنّ الاحتياج يجبرهم أحيانا على الاختلاط بأهالي البلاد التونسية³².
أما في إيالة الجزائر، فقد أورد "بايصونال" شروط الزواج وكيفية التفاهم بين الأولياء، وأنّ الأتراك والأهالي يمارسون تعدد الزوجات، ويتعرفون على أول امرأة يقابلونها هناك عند استحمامهم في الأنهار، كما أنهم يقايضون زوجاتهم كما يحلو لهم وعلى حسب الشروط التي ينص عليها عقد المقيضة³³.

لقد اتهم "بايصونال" العرب والأتراك فيما يخص مراسيم الزواج أنّهم يخرجون عن تعاليم الإسلام، ويظهر أنّه يجهل أنّ تعدد الزوجات قد أباحه الدين الإسلامي، وليس أنّ الأتراك والعرب يتزوجون أكثر من امرأة، لأنّه ليس لديهم ديانة حسب ما أورده، كما أنّ عملية

²⁷ - مكارم سلاطني- لحة عن تاريخ الأوبئة بتونس- مجلة آفاق فكرية- مخبر دراسات الفكر الإسلامي- المجلد 9- عدد 3- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- سيدي بلعباس- الجزائر- 2021م-

ص 74- 86.

²⁸ - جون أندري بيسونال- المصدر نفسه- ص 178.

²⁹ - المصدر نفسه- ص 46.

³⁰ - Peyssonnel- Desfontaines- op.cit- p1 75.

³¹ - Ibid- p 175.

³² - Ibid- p 181.

³³ - المصدر نفسه- ص 87.

التعارف كانت تقوم بها النساء فيما بينهم عن طريق الزيارات، ونفد أن تكون عملية التعارف أثناء الاستحمام في الأودية والأنهار حسب ما ذكره الرحالة.

ونفهم من كلامه أن هناك تطبيق للشرع الإسلامي عند توقيع عقد الزواج في مدينة الجزائر، في حين لم يورد الطقوس التي ترافق هذا التوقيع عند الأسر سواء كانت عائلات مرموقة أو عائلات ميسورة، كما لم يذكر القاضي أو الإمام الذي ينظم عملية الزواج ويدونها في سجلات رسمية.

وبالنسبة للإنكشارية فأغلبهم لم يكونوا متزوجين، وبعد موتهم سينظر إلى أبنائهم كـ "كلاب منبوذين"³⁴، وبالتالي كانت هناك نظرة شنيعة اتجاه الكراغلة من طرف آبائهم الأتراك، وهي نظرة احتقار ونظرة دونية للكراغلة المنحدرين من زواج الأتراك مع نساء جزائريات خوفا من وصول هؤلاء الأبناء إلى السلطة من جهة، أو خوفا من انتفاضتهم في وجه الحكم العثماني بالجزائر من جهة أخرى. في حين كان إنكشارية إيالة الجزائر يفقدون امتيازات عديدة ممنوحة لهم من طرف السلطة في حالة زواجهم، مثل امتياز الحصول على الخبز وحق شراء اللحم بسعر أقل بالثلث عن السعر المحدد لعامة الناس، ويكونون مجبرين على أن يكون الطعام والإيواء على نفقتهم في حالة ما إذا تزوجوا، والسبب في ذلك هو أنهم لا يفيدون الدولة في حالة زواجهم، ويصبح لديهم ورثة يرثونهم بعد وفاتهم أو أسرهم، ولا تستفيد الدولة من أملاكهم في هذه الحالة³⁵.

كما أن الدولة تخاف من زواج الإنكشارية من نساء الأهالي خوفا من تزايد سلطة الكراغلة، وكان الأكل فقط هم من يتزوجون، كما كان الأتراك يحظون بوجود محظيات، ومعظمهم يعيشون على أمل رؤية بلدهم مرة أخرى في يوم من الأيام والاستقرار هناك، وكان لزاما على الجنود الأتراك العزاب أن يقيموا في الثكنات، في حين يقيم الجنود المتزوجون في المدينة على نفقاتهم الخاصة³⁶.

5-2. البغاء ومؤسسة المزوار.

في دراسته حول المدن العربية، لاحظ الباحث الفرنسي أندريه رمون أن أنشطة العاهرات في المدن العربية لم تكن موضع احترام، لكنها كانت مثيرة للاهتمام لدرجة أن غالبية الرجال تحدثوا عنها بالتفصيل، وأن الشخص الذي يتولى شؤون إدارة هذه الوظيفة في الجزائر وتونس يحمل اسم "المزوار"، وهو اصطلاح مأخوذ عن لغة البربر وينطبق على وظيفة كانت موجودة في العهد الموحد والحفصي، وقد أدرج هذا الباحث الفرنسي في ملاحظاته كل ما كتبه الفرنسي "لوج يدي طاسي" الذي زار الجزائر سنة 1720م³⁷.

غير بعيد عن قصر باردو بتونس، كانت هناك مؤسسة أمنية يقودها المزوار أو كبير الحرس، في العادة تكون من نصيب الأهالي وهي وظيفة تعود على صاحبها بالربح المادي، ويساعده مجموعة من الحراس أو الإنكشارية، وتتمثل مهامه في مراقبة النساء أو الفتيات

34 - جون أندري بيسونال - المصدر نفسه - ص 134.

35 - المصدر نفسه - ص 151-152.

36 - المصدر نفسه - ص 151-179.

37 - أندريه رمون - المدن العربية الكبرى في العصر العثماني - ترجمة لطيف فرج - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - القاهرة - مصر - 1991م - ص 94.

العاهرات اللاتي يقمن بممارسة البغاء بدون ترخيص، والغير مسجلات في دفتر خاص بهذه المهنة، وإذا تلقى المزوار "مكسا" منهج فإنّه يدعهن يعملن مثلما يريدون³⁸.

لكن إن استطاع "المزوار" القبض على هذه النسوة مرة أخرى متلبسات بالجرم، فمن حقه أن يجسهن في منزله ويقدمهن للأتراك أو الأندلسيين الذين يسعون في طلبهن، فيتركهن يختارون أي امرأة تعجبهم، ومقابل مبلغ مالي يستطيعون البقاء عليهن مدة من الزمن يتفق عليه، ويرغمون بعد ذلك على إعادتهم إلى المركز الخاص بهم (الماخور) أو تجديد العقد³⁹.

وبسبب معاناة باي تونس (يعني حسين باي 1705-1735م) من المومسات (des femmes publiques) وعقابا لهن، فإنّ المزوار يقوم بإغراق النساء الزانيات في البحر، خاصة عندما يقبض عليهن متلبسات مع عبيدهن أو مع المسيحيين، وفي هذه الحالة يجبر المسيحيون على الإسلام، وإلا يتم إعدامهم هم أيضا في حالة عدم دفع المال للمزوار⁴⁰.

أما وظيفة المزوار في مدينة الجزائر، فعادة ما يشغلها شخص من الأهالي، وهذه الوظيفة تكون مربحة ومرعبة في نفس الوقت، فهو الملازم العام للشرطة، الذي يسهر على حفظ الأمن والنظام في المدينة، وكانت ترافقه فرقة من الرجال المشاة، كما يتمتع بسلطة كاملة، ويقوم بمهمة تفتيش المومسات، حيث كنّ ملزمات بدفع ضريبة سنوية قدرها 2000 قرش للداي، وكان أعوان المزوار ينفذون أتابعه وأوامره الصادرة لهم، ويضربون بالعصا كل من يصدر الداي الأمر بعقابه⁴¹.

ومن مهامه أيضا احتجاز كل المومسات في المدينة وبيقيهن في منزله، حيث يتم تمييزهن حسب طبقاتهن، وبمجرد أن يكتشف امرأة بدأت في القيام بمغامرة غرامية، والقبض عليها متلبسة فانه يحتجزها، ويؤجرهن للأتراك والعرب الذين يأتون لإشباع رغباتهم، وكان لهم الحق في اختيار المومس التي يشاءون، مع الاحتفاظ بها طول الوقت الذي تم الاتفاق عليه، على أن يقوموا بإعادتها إلى المنزل الذي أخذت منه ويمكنهم تجديد الاتفاق. ويمكن لمن ترغب في الخروج من أجل العمل في الخارج لكسب المال بعد حصولهن على ترخيص من المزوار، على أن تدفعن مبلغ من المال لهذا الأخير كحقوق الخروج⁴².

إذن نلاحظ أن وظيفة المزوار في كل من مدينتي الجزائر وتونس يتقلدها الأهالي، وكانت هذه المهمة أكثر صرامة وقوة في التطبيق بمدينة الجزائر، فبعد تنصيب الباشا الجديد، يخبره أعضاء الديوان بواجباته ومن بينها القضاء على الأشرار ومعاينة مرتكبي الزنا، كما كان الانكشارية لا يجروون على ارتكاب أي دناءة أو اغتصاب أو سطو خوفا من أن تسلط عليهم عقوبات قاسية⁴³، في حين كان لهذه المؤسسة الأمنية في مدينتي تونس والجزائر تقريبا نفس الشروط المفروضة على طالبي المومسات.

³⁸ - Peyssonnel- Desfontaines- op.cit- p 61.

³⁹ - Peyssonnel- Desfontaines- op.cit- p 61.

⁴⁰ - Ibid- p 83- 84.

⁴¹ - جون أندري بيسونال - المصدر نفسه- ص 157- 158.

⁴² - المصدر نفسه- ص 157- 158.

⁴³ - المصدر نفسه- ص 137- 150.

أما في مدينة قسنطينة، فقد كان الباي أحيانا هو من يقوم بنفسه بمعاقة النساء الزانيات، ففي أعلى الجهة الشمالية الغربية من مدينة قسنطينة وعلى ارتفاع 600 قدم، قام الباي حسين بوكمية (1713-1736م) برمي عاهرة من هذا المرتفع الشاهق، لكن الرياح دخلت في برنسها ونزلت إلى الوادي دون أن تصاب بأذى تقريبا، ولكن الباي أعاد رميها مرة ثانية لتلقى حتفها⁴⁴. وبالتالي فإننا نلاحظ أن باشاوات الجزائر وبايات تونس وقسنطينة كانوا يعملون كل ما في وسعهم من أجل القضاء على ظاهرة البغاء العشوائي، وتنظيمها في هيئة رسمية يشرف عليها المزوار، رغبة في جلب مزيد من المداخل المالية لخزينة البايلك بدرجة كبيرة، وتنظيم شؤون المجتمع من جهة أخرى.

5-3. ظاهرة الإجهاض.

كانت ظاهرة الإجهاض في الإيالة التونسية تقوم بها النساء سواء المتزوجات أو المتزوجات سرا، وهذا بسبب عدم الرغبة في إنجاب العديد من الأطفال، لأنّ الزوج لا يقدر على إعالتهم، ويسبب رغبة النساء في المحافظة على جمالهن، وعلى حب أزواجهنّ الذين يتحول حبهم إلى كره في حالة إنجاب زوجاتهنّ للعديد من الأطفال⁴⁵.

ويعتبر بايصونال أنّ ظاهرة "الإجهاض" كانت تتم بصفة عادية في الإيالة التونسية، عن طريق استخدام العقاقير للقيام بهذه العملية، وقد ذكر الرحالة إحدى الطرق الأخرى للإجهاض⁴⁶، في حين لم يذكر بايصونال هذه الظاهرة في مدينة الجزائر، وهذا راجع إلى القوانين الردعية التي كان يفرضها المزوار في مدينة الجزائر، أو أنّها كانت تتم سرا بعيدا عن أعين المجتمع.

6. نساء قبيليات زعيمات.

قامت نساء الأسر القبلية التي تحظى بمكانة اجتماعية واقتصادية خلال العصر الوسيط، بدور في السلطة وقمن بأدوار في الحياة السياسية سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة⁴⁷.

وقد وصل بها الأمر في بعض الأحيان إلى تزعمها للقبيلة، فيقول ابن خلدون عن مشيخة زواوة بنو ايراثن، شاخت منهم امرأة من عائلة بني عبد الصمد اسمها شمسي لها 10 أبناء ساعدوها في مشيختها⁴⁸.

44 - المصدر نفسه- ص 48-49.

45 - جون أندري بيسونال- المصدر نفسه- ص 60.

46 - كانت النساء في إيالة تونس تستعملن من أجل الإجهاض، بعض العقاقير التي تباع في الأسواق، كما يدخلن في أرحامهن ريشة دجاجة وعزقن الغشاء الذي يضم الجنين، وبالتالي تتم عملية الإجهاض في ثواني قليلة، للمزيد من الإطلاع، أنظر:

- جون أندري بيسونال- المصدر نفسه- ص 60.

47 بوبة مجاني- النساء والسلطة في بلاد المغرب خلال القرنين الثالث والرابع هجري (9-10م) مقارنة أولية- مجلة سيراتا- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- عدد خاص "النساء والسلطة- أعمال الأيام الدراسية 21-22 ديسمبر 1997م- قسنطينة- أكتوبر 2000م- ص 14.

48- عبد الرحمان ابن خلدون- تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر- ضبط شحادة خليل- مراجعة زكار سهيل- ج6- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان- 2000م- ص 169.

وخلال العصر الحديث لم تترك لنا كتب الرحالة العرب معلومات كثيرة عن النساء البارزات في دواخل الإيالاتين الجزائرية والتونسية، ولم يعيروها اهتماما كبيرا، فخلال القرن السابع عشر ميلادي أعطانا " العدواني " مؤرخ منطقة وادي سوف معلومات تفيد بقيام إحدى الوليات بتلك الناحية والمسماة بـ " زينب بنت تندلة " بالصلح بين قبليتي " طرود " و " عدوان " ⁴⁹.

وأمرت تلك الولاية " طرود " بالعفو عن نساء وشيوخ " عدوان " وإسكانهم معهم في عدوان التي استولوا عليها عنوة، كما دخلت الولاية الصالحة في الأمور الغيبية حاملة البشرية لقوم التجئوا إليها لحل مشاكلهم، نافية عنهم أي شيخ يتشيخ عليهم بسبب كرههم لقيام شيخ عليهم وحبهم للحرية ⁵⁰، وقد خصّص " العدواني " صفحتين لهاته الواقعة مع الولاية.

لقد تحدث الرحالة " بايصونال " عن بعض النساء القبليات الزعيمات بكثير من الإعجاب والانبهار، وبرزت هؤلاء النسوة بسبب الصراع بين مؤسسة الباي والقبيلة في بابل الشق الجزائري من جهة، ورغبة البايات بربط تلك الأسر القبلية المنتفذة بالمخزن من خلال تمكين روابط المصاهرة والزواج بينهما من جهة أخرى.

ومن بين تلك النساء: الأميرة أم هاني زعيمة قبيلة الذواودة الهلالية بالزاب، وعلجية بنت بوعزيز بن نصر شيخ الحنانشة بالحدود الشرقية لبابلك قسنطينة ⁵¹، ووصل به الحد إلى مقارنتهن بأميرات فرنسيات في تلك الفترة .

وبالحديث عن هاتين المرأتين القبليتين، فقد ترك لنا " بايصونال " العديد من الملاحظات التي تبين الدور الإيجابي الذي كان للمرأة في حياتها اليومية، سواء كانت بنتا أو زوجة، وكانت تبادر إلى التضحية والوقوف بجانب الزوج- الأب إذا كان يمر بمحنة ما، أو إن كان قد توفي وترك أبناء صغارا يستحقون الرعاية، وتقديم العطاء المعنوي والمادي في حالات الانهزام والانكسار.

6-1. الأميرة أم هاني.

مثلما ذكرنا سابقا عن مصاهرة الباي المدعو حسين باي قسنطينة (1713-1736م) وزواجه من ابنة أم هاني زعيمة قبيلة الذواودة الهلالية بالزاب ⁵²، فقد أورد الرحالة " بايصونال " وصفا لدقيقا لصفاتها الجسدية والأخلاقية بعد أن التقى بها في ضواحي مدينة سطيف، حين قدمت لممارسة الفلاحة، وكان سعيدا ومعجبا جدا لرؤيتها، وعالج ابنها المريض في خيمتها.

وقد كانت هذه الأميرة زوجة شيخ قبيلة " رئيس عربي " (هو القيديم شيخ العرب من أسرة بوعكاز الذواودة) يحكم في الصحراء، وبعد وفاته تولّت حماية أبنائها الصغار، وحكمت قبيلتها التي أذعنّت لها بالولاء والخضوع، وقادت الفرسان في معارك عديدة ضد الأتراك وانتصرت عليهم، وما زادها من هذه المكانة المرموقة أنها انتصرت على باي قسنطينة في العديد من المرات، مما جعله يطلب ابنتها للزواج

⁴⁹ - محمد بن محمد بن عمر العدواني - تاريخ العدواني - تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله - طبعة خاصة - عالم المعرفة - الجزائر - 2011م - ص 101.

⁵⁰ - محمد بن محمد بن عمر العدواني - المصدر نفسه، ص 101.

⁵¹ - كان لنا مقال حول نساء من قبيلة الحنانشة (علجية بنت بوعزيز)، وعيشوش بن قانة (في عائلة بني جلاب بتقوت)، للمزيد من الإطلاع ينظر:

- يعقوب خديجة - نساء من قبيلة الحنانشة وبني جلاب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة القرطاس - عدد 11 - مخبر الدراسات الحضارية والفكرية - جامعة تلمسان - جانفي 2019م - ص

171-186.

⁵² - جون أندري بيسونال - المصدر نفسه - ص 39.

(في سنة 1724م) من اجل استمالتها لصالحه وكسب صداقتها، وقد بقي بايصونال معجبا من هذه الفارسة التي قادت وحكمت مجتمعا "يحتقر كثيرا الأنثى"⁵³.

وتوجهت هذه الأميرة رفقة الأعراش الخاضعة لها واستقرت بالقرب من سطيف لقضاء الصيف حيث التقى بها "بايصونال"⁵⁴، فيضيف فقرة عنها قائلا: "امرأة لامعة ومحاربة تحكم قبيلة كبيرة في هذه البلاد التي يسود فيها سيطرة الرجال ... وجدتھا جالسة في خيمتها الكبيرة والنظيفة مع كبار رجال قبيلتها. صافحتها فأجلستني بالقرب منها وسألتني هل من أخبار جديدة عن الباي. إنها امرأة عظيمة وجميلة، كانت في الستين من عمرها، وهي أنيقة ووجهها سعيد جدا، لا يمكنني تقديمها لك بشكل أفضل من مقارنتها بالسيدة فونتادور، كانت تجلس على زريبة، ترتدي لباس المغاربة المتكون من برنوس عادي لكنه نظيف، ووشاح تغطي بها رأسها وكانت تضع قطعة من حلي تزين به رأسها وتمسكها بمشبك من ذهب، أساورها من فولاذ، ولا تحمل أية مظاهر للأبهة سوى طلعتها الجميلة، لكن نظافة خيمتها واضح بجلاء"، وقد طلبت من الرحالة الفرنسي أن يعالج ابنها المريض⁵⁵.

ويظهر أن هذه الزعيمة قد فرضت وجودها علنا، وحكمت إقليما واسعا في الصحراء عن طريق الحكم والإدارة المباشرة، وكانت فارسة ماهرة تقود الفرسان إلى ساحة المعركة بنفسها.

6-2. علجية بنت بوعزيز.

لم تكن الأمير أم هاني هي المرأة المحاربة والحاكمة الوحيدة التي تحدث عنها "بايصونال" بإسهاب، واللواتي يستحقن كل التقدير والاحترام، ففي حديثه عن انضمام "بوعزيز بن نصر" شيخ الحنانشة أمام محلة باي قسنطينة سنة 1724م، حضرت ابنته "علجية" وارتدت أجمل ما لديها من ثياب وامتطت الفرس ونادت على الفتيات وقريباتها أو صديقاتها فركبن هن كذلك الأحصنة، وخطبت فيهن خطبة مؤثرة جاء فيها: "لأن هؤلاء الرجال لا يملكون الشجاعة لقتال الأتراك الذين سيأتون ويغتصبوننا أمام أعينهم هيا بنا نضحي بأنفسنا من اجل حياتنا وشرفنا، ولا نبقي إطلاقا مع هؤلاء الجبناء"⁵⁶.

ويضيف الرحالة قائلا حول هذه الفتاة المحاربة: "... فتأثر الرجال ببطولتها واندفعوا لقتال الأتراك بكل عنف والحقوا الهزيمة بمعسكرهم، وتمكنوا من استرجاع جزء من الغنائم التي كانت قد سلبت منهم، وأسروا خليفة الباي وجردوا كل الأتراك من ممتلكاتهم"، وقد قارنها بايصونال بإحدى النساء الأوروبيات الشهيرات⁵⁷.

ويمكن القول أن بنات وزوجات شيوخ القبائل حظين بمكانة مرموقة، وشكلن أرستقراطية ريفية خلال عصور متعاقبة، لكن لا يمكن تعميم تلك الآراء كلها على نساء وزوجات وبنات شيوخ القبائل، فقد كانت هناك نهايات مأساوية للبعض منهم.

⁵³ - المصدر نفسه- ص 38-40.

⁵⁴ - تستخلص جملة معاشي: يبدو أن هذه الأميرة حكمت الصحراء مدة نصف قرن تقريبا من 1672 إلى 1724. قامت بحرب مستمرة ضد سلطة الباي في قسنطينة. ولم تستقر الأوضاع إلا في عهد حسن بوكمية (1713-1735م). بعد فشله في إخضاع أم هاني بقوة السلاح، رجع إلى المصاهرة وطلب يد ابنة أم هاني. قبلت هذه الأخيرة وقد أهلكها النزاعات القبلية، ثم ابتعدت عن الحياة السياسية.

⁵⁵ - جون أندري بيسونال- المصدر نفسه- ص 101-102.

⁵⁶ - المصدر نفسه- ص 37-38.

⁵⁷ يظهر أنهن أميرات عشن في فرنسا خلال تلك الفترة - المصدر نفسه- ص 37-38.

وهذا ما حدث لزوجة شيخ صنهاجة بضواحي عنابة، حيث قام القايد باحتجازها رفقة ولدها الذي تولى منصب شيخ في مكان أبيه المتوفى، رغبة في الاستيلاء على أموال الأب، وسلمهما للباي رغبة في الاستيلاء على أموالهم والكشف عن كنوز المخفية⁵⁸. غير أن المرأة القبلية عموماً كانت تتصف بشجاعة وبسالة كبيرة، انبهر بها الرحالة "بايصونال" في كثير من الأحيان، ففي حديثه عن ضواحي القالة، وأثناء مهاجمة الأسود لحيوانات أفراد القبيلة، فإن الرجال والنساء ينتزعون البقرة والغنم من أنياب الأسود أثناء مهاجمة ماشيتهم في وسط الدوار وخيام القبيلة، ويجبرونها على الفرار إما بالصراخ والضرب بالعصي، وقد كانت الأسود تخاف من النساء أكثر من الرجال، وقد كنّ تتميزن بشجاعة كبيرة⁵⁹.

7. الزواج داخل القبيلة.

لقد كان من العادة أن يتزوج أفراد القبيلة التونسية من بنات العمّ، وحتى الفتيات لا يمكنهنّ الزواج من الغرباء، إلّا إذا أعلن أبناء العمومة مسبقاً أنّهم لا يريدون الزواج منهن، وفي إثر الحروب التي تندلع بين قبيلة وأخرى، فعادة ما تحترم النساء، ولا تتعرضن لأيّ إذلال ولا لأيّ إهانة، ويقع الاتفاق على المهر مسبقاً، ويتمثل عادة في الثيران أو المال حسب مرتبة أو جمال الفتاة، ويسلم المهر المتفق عليه لوالد الفتاة⁶⁰.

أما في يوم الزفاف فيدعو والد الفتاة كل الأقرب والأصدقاء سواء من قبيلته أو من القبائل المجاورة، ويتوجه كل المدعوين إلى دوار العروس ويمنح كل واحد منهم هدية لوالد العروس، ويقوم عدل إشهاد بتقييد ومعاينة كل الهدايا المجلوبة، لأنّه عندما يزوج المدعوون بناتهم، يكون لزاماً إرجاع ما يساوي ما حصل منهم⁶¹.

ويرافق احتفالات الزواج عمليات عديدة منها ختان الأطفال، ومسابقات الخيل والرقص، يقوم بها أصحاب الآلات الموسيقية والولائم، وتحضر نساء الجوار والمدعوات، ويرافقن العروس إلى دوار الزوج، مصدرين نوعاً من الزغاريد⁶².

وفي بعض الأحيان تتم الأعراس بالغصب، فيختطف العريان حبيباتهم عندما لا يريد أهلها تزويجها، وبعد عملية الاختطاف يضعون العروسة في تحت حمايته صديق في قبيلة أخرى، حتى يوافق أهلها على زواجها، والشخص الذي يستقبل الفتاة المخطوفة في خيمته، مجبر على تجهيزها يوم زفافها، والنساء العرييات لسن محجبات، ويقول بايصونال أنّه شاهدتهن وتحدث إليهن بدون عناء، رغم أنّ أزواجهن غيورين في عدة مناسبات وشديدي القسوة فيما يخص الشرف⁶³.

أما في إيالة الجزائر، فقد استغرب الرحالة من إحدى العادات التي يقوم بها السكان المحليين بضواحي عنابة، فيراقب العرسان زوجاتهم، ويحضرون 4 من أصدقائهم لحضور الإحتفالات⁶⁴. وهذا للتأكد من عذرية العروس في الليلة الأولى من إتمام الزواج، ويقول أنّهم

58 - المصدر نفسه- ص 57.

59 - جون أندري بيسونال - المصدر نفسه- ص 19 - 20.

60 - Peyssonnel- Desfontaines- op.cit- p 213- 214.

61 - Ibid- p 214-215.

62 - Ibid- p 215.

63 - Ibid- p 215-216.

64 - المصدر نفسه- ص 64 - 65.

غيورين كثيرا على زوجاتهم، حسب ما أكدته له أناس وبعض من أفراد القبائل يثق فيهم الرحالة⁶⁵، غير أنّ الرحالة لم يورد إلا حالات قليلة عن زوجات شيوخ القبائل⁶⁶.

8. المرأة والجنازات.

في القبيلة التونسية وعند وفاة شخص يتم إعلام الأهل والأصدقاء، وكل من يسمع الخبر يذهب إلى خيمة المتوفى لتقديم التعازي، ويلطم الرجال جباههم، في حين تلطم النساء وجوههن علامة على الحزن. ويشكلن حلقات ودوائر ويمكثن هكذا لساعات وأيام كاملة، نائحات وذاكرات لمحاسن الفقيد، داعيات لروحته، ثم يدفن الميت، وقد قاموا بغسله بعناية، وتعطيره وبوضعه في كفن، ويضعون كومة من الصخور فوق قبره، وهناك بعض القبائل تجبر نساء الميت على حلق شعورهن، وتركها فوق القبر⁶⁷.

أما في الإيالة الجزائرية وتحديدًا في إحدى مناطق الأوراس، عندما يموت الرجل، تذهب النساء لإحدى الأشجار العجيبة والمشهورة هناك من أجل الصلاة له، وهناك يتركن شعورهن الذي كنّ يقطعنه بهذه المناسبة⁶⁸، وحسب هذه المعلومات فإنّ بعض من هذه العادات تكون متشابهة في العديد من المناطق.

9. اللباس والزينة.

يكون للنساء في أرياف الإيالة التونسية في بعض الأحيان قميص من النسيج، وفي أحيان كثيرة سترة من صوف نصفها أحمر والنصف الآخر أزرق، وبرنس يسمونه سفساري، ولهن كمية من الحلقات حول الأذرع، والساقين وفي الأذنين والرأس، وهذه الأخراس من ذهب وفضة ونحاس أو بلور حسب إمكانياتهن، ولهن أيضا قلائد من بلور أو من حبوب المرجان، أو النحاس الموصولة بحبل⁶⁹.

وقدّم "بايصونال" وصفا آخر دقيقا لشكل لباس المرأة يتمثل في قطعة قماش صوفية بثلاث قياسات، توضع بصفة مختلفة، فهي جانبية، وتشد على الأكتاف بخرصين أو بقطعتين من الخشب بمثابة دبوسين، تشدان الجانب الخلفي مع الجانب الأمامي، وهي مثنية ومشدودة بحزام، وذلك هو قميصهن، وشعورهن مجندلة ضفائر، لهن أحيانا قطعة قماش من النسيج الأزرق على الرأس مصحوبة بنوع من العمامة، ويحملن العديد من الحلقات منفضة، أو معدن آخر من زجاج في القدمين واليدين (نعتقد أنّها الخلخال والأساور)، وعدة قلائد حول الرقبة⁷⁰.

كما تقمن بوشم الوجه واليدين والرقبة، وهو نوع من الزينة، فيضعن على المناطق التي يردن وشمها سائلا أزرق، وأحمر وأسود، ثم يقمن بخز الجلد بإبر ويرسمن عليها رسوما، وتصبغ النساء شعورهن وحواجبهن وأظافرهن بالحناء، فيقمن بتجفيف النبتة، ثم يحولن الأوراق إلى غبار، ويبللن هذا الغبار في الماء، مكونات منها معجونًا يضعنه على الأجزاء التي يردن تحويلها إلى اللون الأصفر⁷¹.

⁶⁵ - المصدر نفسه - ص 64 - 65.

⁶⁶ تزوج بلعباس شيخ المعزول بالقالة من زنجية حسب نفس المصدر - ص 59.

⁶⁷ - Peyssonnel- Desfontaines- op.cit- p 216.

⁶⁸ - جون أندري بيسونال - المصدر نفسه - ص 93.

⁶⁹ - Ibid- p 68-69.

⁷⁰ - Ibid- p 218.

⁷¹ - Ibid- p 218-219.

في حين يتمثل أثاث البيت في حصير وجلد الغنم، بالإضافة إلى سرير وكرسي ومائدة، وتتمثل أوانيهم في إبريق للمياه يسمى "برداك"، وصحن من خشب حل الطحين، وشرب الحليب ووضع اللحوم أو الغلال، وفي بعض الأحيان يتمثل الأثاث في حصير من الخيزران، وجلد الخروف، وبنامون ملفوفين في سفاسرهم، التي تكون بمثابة نضيدة، وكفن وغطاء، ويأكلون ويبقون جلوسا طوال اليوم⁷².

10. المأكولات.

ذكر الرحالة بعضا من المأكولات التي يتم صنعها داخل خيام أفراد القبيلة التونسية، فهم يعيشون على "البسيصة" وهي طحين من الشعير المحلول في الماء وأحيانا في الحليب الشفاف جدا، كما يتناولون العصيدة، وهي نفس الطحين المحلول في الماء وفي قليل من الزيت الخاثر وتصنع منها كويرات، وقلما يحصلون على البيض⁷³.

وأما الأواني فتتمثل في قدر من الطين لطهي اللحم، وقدر آخر مثقوب لوضعه، بمثابة غطاء فوق القدر الذي يغلي، فيملؤونها بالكسكسي الذي يقع طهيه ببخار القدر السفلي، ولهم أيضا قربة من جلد الماعز وإناء من الخشب يستعملونه بمثابة قديم وصحن. ويطهى الخبز بعد أن يتم طحن القمح، وينقى في غربال وتنزع النخالة التي تجعل الرغيف ثخنا جدا، ويسمونه السميد أو الدقيق الذي يصنعون منه الرغيف بدون خميرة، فيذوبون السميد وسط الماء ويطهون العجين في الرماد أو في فرن خاص، فينضج الرغيف⁷⁴.

أما الأكلة الثانية فتتمثل في الكسكسي الذي يصنع من السميد، فعندما يضعون اللحم الطري أو اللحم المملح والمحفوظ في السمن، يضعون بدقة على الإناء الأول إناء ثانيا مثقوبا وقد امتلأ بالكسكسي، وبخار اللحم يطبخ ويعطر الكسكسي، الذي يتم تحريكه بعناية، ثم يسقى سمن⁷⁵.

أما البرّين فهي طحين مطبوخ بالماء والزيت والعسل، يتم خلطها حتى تصير يابسة، في حين البسيصة فهي تصنع من طحين الشعير المقلّي والمحلول في الماء أو الحليب الرائب والصافي⁷⁶.

وفيما يخص بايلك الشرق الجزائري، وفي إطار حديث "بايصونال" عن محلّة باي قسنطينة في ضواحي قبيلة أولاد عبد النور، فإن الأتراك يفرضون على العرب حق الضيفة في خيمة الأهلي، فتقوم زوجة الرجل بإعداد الرفيس وهو نوع من الحلوى تطبخ في قدر من الحجر الرملي، ثم تقطع إلى قطع صغيرة وتمزج مع العسل والزبدة الذائبة وأحيانا تخلط مع التمر.

وفي زمورة بالقرب من برج بوعريّيج وجد سكان المدينة يصنعون الكثير من البرانيس الرقيقة والزراي ومنتجات أخرى من الصوف تستعمل محليا⁷⁷.

لقد أعطانا الرحالة كل الخصائص التي تتميز بها المرأة القبلية التونسية من لباس وزينة وحلي وغيرها من الأمور الأخرى، وقد أفرد المرأة القبلية في البلاد التونسية بوصف أكثر مما تركه لنا حول نظيرتها في الإيالة الجزائرية، وهذا راجع ربما للظروف التي أحاطت بالرحالة

⁷² - Ibid- p 69- 219.

⁷³ - Peyssonnel- Desfontaines- op.cit- p 73-74.

⁷⁴ - Ibid- p 220- 222.

⁷⁵ - Ibid- p 223.

⁷⁶ - Ibid- p 223.

وطبيعة التضاريس الصعبة في بايلك الشرق الجزائري من جهة، ولموقف القبائل في تلك الفترة من الأتراك العثمانيين المعادي في كثير من الأحيان لهم، وبالتالي صعب على الرحالة ملاحظة الكثير من خصائص المرأة القبلية في بايلك قسنطينة.

11. المهام

لم يذكر بايصونال الكثير حول مهام المرأة في القبيلة التونسية، فأفرادها يعيشون تحت الخيام التي تتكون من قطع كبيرة من القماش، تصنع من صوف ممزوج بوبر الماعز، الذي تغزله النسوة وتنسجه بدون مغزل، فيقمن بتسدية الخيوط ويصففنها بين خشبتين، ويمررن الخيط حتى تمتلئ الصفوف الموجودة بالسداي، ويفرقنها الواحدة تلو الأخرى، ضاغطات عليها بمشط من الخشب، ويسكن تحت الخيمة كل أفراد العائلة: الأب والزوجات، والأطفال والبنات، ويوجد المطبخ أو مكان طهي الخبز في الجزء الأمامي للخيمة، وهناك ثلاثة صخور تكون الموقد⁷⁸.

12. المرأة القبلية والطب:

يتحدث "بايصونال" عن أفراد القبيلة وجهلهم الكبير في ميدان الطب، فهم لا يعرفون ولا يقومون بأي علاج في حالة مرضهم، ويكتفون بالنوم، ويصومون في بداية مرضهم، ففي بعض الأحيان يجتمعون حول الصريع للرقص في حالة المسّ بالجنّ، وفي بعض الأحيان يجعلون المريض يرقص.

وكما أنّ نساء القبيلة تكثرن من هذه الطريقة في حالاتهن الجنونية، فيقلن أنهنّ سجينات الجان: ويجلبن الراقصين، وفي نهاية الرقصة يصرحن بأن الجنّ طلب أقرطا، وحلقات أو مادة أخرى للزينة، ولمعالجة المريضة، يجد الزوج نفسه مجبرا على شيء ما يطلبه الجنّ⁷⁹. لقد ذكر الرحالة هذه الحالات الشاذة والغريبة، لكننا نرجح أنّ تلك الطريقة نادرة وقليلة تجسيد في القبيلة، وتمس فقط حالات المسّ بالجنّ، فقد ذكر أيضا إيمان الأفراد بالقضاء والقدر فهم يتعافون ويموتون إذا شاء الله حسب اعتقادهم، واعتبر "الرحالة" أنه لم يتعلم شيئا في مجال الطب بالإيالة التونسية، وعرف فقط كيفية استعمال بعض النباتات التي من الممكن أن لا تكون حديثة، وقد حصل على هذه المعلومات من سكان المدن، لأن سكان الأرياف لا يعرفون شيئا عنها⁸⁰.

خاتمة:

يمكن أن نخرج من كل هذا بعدّة ملاحظات أهمّها:

- لم تسجل العديد من المآثر التي قامت بها المرأة في إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر ميلادي، وحتى أثناء أبرز أحداث القرن التاسع عشر ميلادي غاب فيها ذكر المرأة وإنجازاتها.
- ارتفاع وبروز القيمة الفعلية لبعض النساء في ريف بايلك الشرق الجزائري مقارنة مع المرأة في مدينتي تونس والجزائر، وقد كانت بعض النساء القبليات في بايلك الشرق الجزائري مهمّات لدرجة كبيرة، فهن من يجدن حلولاً للبايلك أثناء فترة الأزمات، وفي بعض الأحيان كنّ سببا في إثارة المشاكل والأزمات للبايلك.

⁷⁸ - Peyssonnel- Desfontaines- op.cit- p 219.

⁷⁹ - Ibid- p 224.

⁸⁰ - Ibid- p 224 225.

- غياب معلومات تتعلق برؤية الرحالة "بايصونال" لوثائق تتحدث عن عقود الزواج، ومن المرجح أنّ الزواج في القبيلة كان عرفيا بدرجة كبيرة، عكس ما كان في المدن والحوضر، وحسب ملاحظات هذا الرحالة، فقد كانت تقاليد الزواج تجمع بين الرغبة والإكراه من أجل تحقيق الآباء والأزواج لمصالح سياسية وشخصية في بعض الأحيان.
- قلّة الملاحظات والمعلومات التي خلّفها الرحالة العرب والأجانب حول المرأة، وقلّما يتعرضون لمسألة تتعلق بإحدى النساء، وظهور المرأة القبلية والحضرية في إطار تأثير هؤلاء النسوة في سير الأحداث التاريخية ببائلك الشرق الجزائري، وتأثيرهنّ في ديوان مدينة الجزائر، أو في بلاط قصر باردو مقر حكام بايات تونس، وهذا راجع إلى طبيعة المجتمع الذكوري، حيث لا تظهر فيه المرأة على مسرح الأحداث، ليس لأنها لم يكن لها دور في الحياة اليومية، ولكن بسبب النظرة التي كان ينظر بها إليها.
- ساهمت جهود "بايصونال" في إثراء بعض الجوانب التي تخص المرأة داخل المدينة وداخل القبيلة، ورغم قلّة المعلومات التي زوّدنا بها، إلّا أنّها تبقى مهمّة للتعريف بواقع مجتمع الإيالتين الجزائرية والتونسية في العقود الثلاثة الأولى من القرن الثامن عشر ميلادي.
- وجد بالجزائر حريم لدى البايات والباشاوات في إيالتي الجزائر وتونس، لكن الرحالة "بايصونال" اكتفى بذكر نظام الحريم الذي عرفه بلاط باي تونس حسين بن علي (1705-1735م)، ذكرا حجمه الكبير والذي يحتوي على العشرات من النساء لدى السادة والأمراء في تونس، ولم يذكر الرحالة تلك الأدوار السياسية التي لعبتها نساء الأمراء، ولم يعره الرحالة إلا اهتماما عرضيا.